المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

وبعد:

فإن من تأمل الشريعة الإسلامية في مصادرها وموارداها علم ارتباط الأعمال الظاهرة بأعمال القلوب، التي هي الأعمال الباطنة، والتي لا تنفع أعمال الجوارح دون تصحيحها وتطهيرها، فأعمال القلوب وإصلاح السرائر أوجب على العبد من أعمال الجوارح، فبصلاح القلوب والسرائر تصلح الظواهر وبفسادها تفسد. قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[1].

---

(١) البخاري (٥٢)، مسلم (١٥٩٩).

وهـل تتميز حقيقـة المؤمن الصادق عـن المنافق إلا بما في قلـب كل واحد منهـما من الأعمال والأحـوال، إذ إن عبودية القلـب أعظم من عبوديـة الجوارح، والقلـوب هي محل نظر الله ﷻ وبهـا يتفاضـل النـاس عنـد ربهـم ﷻ، وعليهـا مدار القبول أو الرد عند الله ﷻ.

والناس في عنايتهم بالبواطن والظواهر طرفان ووسط:

طـرف صرفوا هممهم إلى إصلاح أعمال الجوارح والظواهر وأقاموها على ما جاء عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ مع إهمال منهم وعدم اعتناء بأعمال القلوب والسرائر، فضعفت عبودية قلوبهم.

وطرف صرفوا الهمم إلى أعمال القلوب مع إهمال لأعمال الجوارح فضعفت عبودية جوارحهم أو فسدت.

والوسـط: وهم العارفون المؤمنـون بربهم ﷻ، المتبعون لنبيهم ﷺ ولطريق السلف الصالح، القائمون لله ﷻ بعبودية الجوارح وعبودية القلوب والسرائر، وقدموا إصلاح السرائر على غيرها وجعلوا الأعمال الظاهرة تبعاً لعبودية القلب، وهذه هي العبودية الصادقة الكاملة.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (وهل الأعمال الخالية عن عمل القلب إلا بمنزلة حركات العابثين وغايتها أن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب. ولما رأى بعض أرباب القلوب طريقة هؤلاء انحرف عنها إلى أن صرف همه إلى عبودية القلب وعطل عبودية الجوارح، وقال: المقصود قيام القلب بحقيقة الخدمة والجوارح تبع. والطائفتان متقابلتان أعظم تقابل. هؤلاء لا التفات لهم إلى عبودية قلوبهم، ففسدت عبودية جوارحهم. والمؤمنون العارفون بالله وبأمره قاموا له بحقيقة العبودية ظاهراً وباطناً، وقدموا قلوبهم في الخدمة، وجعلوا الأعضاء تبعاً لها، فأقاموا الملك وجنوده في خدمة المعبود. وهذا هو حقيقة العبودية)[1].

ومن تأمل أحوال السلف الصالح وجد العناية الشديدة منهم بإصلاح السرائر وتنقيتها من الآفات والشوائب التي تفسدها. والعكس من ذلك حينما ننظر إلى أحوالنا اليوم، حيث الإهمال والغفلة عند كثير من الناس عن القلوب وإصلاحها، ونسيان السرائر وتنقيتها، الأمر الذي ترتبت

(١) بدائع الفوائد: (٣/ ١٦٢-١٦٣).

عليه آثار سيئة وأمراض فتاكة في الأمة على مستوى الفرد والجماعة.

والسريرة أمرها عظيم وشأنها خطير ولو كشفت سريرة أحدنا للناس لرأوا التباين بين الظاهر والباطن، ولما استطاع أن يعيش بين الناس وهو مفضوح السريرة. فكيف وهذه السريرة لا تخفى على الله ﷻ ولو خفيت على الناس، حيث السر عنده ﷻ علانية، وخفايا القلوب له بادية، فالحمد لله على ستره.

وقد حذرنا الله ﷻ من يوم تبدو فيه السرائر وتختبر، وتنكشف فيه البواطن وتمتحن، فيظهر ما فيها من الإخلاص والمحبة والصدق واليقين، أو ما يضاد ذلك من النفاق والكذب والرياء، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

فحريٌّ بمن خاف مقام ربه ﷻ أن يعد لهذا اليوم عدته ويسعى ما دام في زمن المهلة إلى إصلاح سريرته وسلامة قلبه، لعله ينجو من الخزي والفضيحة والعقوبة يوم

القيامة، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

ومن علامة توفيق الله ﷻ للعبد أن يوفقه إلى إصلاح سريرته ويشغله بإصلاح باطنه وتطهيره من الآفات والصفات الذميمة: كالحسد والرياء والعجب والكبر والحرص على الشهرة والظهور وغير ذلك من الآفات. ومن علامات حرمان التوفيق للعبد أن ينشغل بغيره عن نفسه، أو يشغله بإصلاح ظاهره عن إصلاح سريرته.

أهمية الموضوع:

تشتد الحاجة إلى طرح هذا الموضوع وتظهر أهميته من خلال الأمور الآتية:

* الأمر الأول:

انفتاح أبواب الفتن في هذا الزمان على مصراعيها، سواء كانت فتن شبهات أو شهوات، وذلك بما جد في هذا العصر من وسائل متنوعة تفتن الناس عن دينهم، أو من غلبة

الدنيا وشهواتها والتنافس فيها وانفتاحها الشديد على الناس، مما تكدرت بسببه القلوب، وغفلت به عن الآخرة وعشعش فيها آفات كثيرة أفسدت السرائر وأظلمت بسببها البواطن عند كثير من الناس، فهذا آفته الحسد والغل على أخيه أو قريبه المسلم، وآخر آفته الرياء وحب الظهور والمناصب والشهرة، وثالث آفته الكبر والعجب وحب التعالي على الناس. فإذا كان الحذر مطلوباً في كل وقت من الفتن التي تعرض على القلوب وتفسد السرائر، فإن الحذر يجب أن يكون أشد في هذه الأزمنة، التي تموج فيها الفتن كموج البحر، كما يجب أن يتنادى المصلحون والدعاة، ويهتموا بإصلاح ما فسد من السرائر في أنفسهم وفي نفوس من تحت أيديهم من أولادهم وطلابهم، وأن يولوا ذلك العناية الشديدة في مناهج التوجيه والتعليم.

*** الأمر الثاني:**

إن أساس التفاضل بين العباد في أعمالهم هو ما يقوم في القلوب من سريرة صالحة، تنطلق من الإخلاص والمحبة لله ﷻ، والتعظيم له ﷻ ولأوامره ونواهيه. ولذا قد يشترك

اثنان في عبادة واحدة: كالصدقة أو الصلاة أو الصيام أو الحج أو الجهاد أو الذكر، ويكون بينهما في الفضل والقبول عند الله ﷻ كما بين السماء والأرض، وذلك حسب ما قام في السريرة عند أداء هذه العبادة. ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (والله يضاعف ذلك بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه، ونفع نفقته وقدرها، ووقوعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبيت عند النفقة)[1].

بل إن المعصية قد تكون كبيرة أو صغيرة بحسب ما يقوم بالقلب من تعظيم أمر المعصية، والحياء من الله ﷻ، أو عكس ذلك من الاستهانة بالمعصية وقلة الحياء وعدم المبالاة، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (وهاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن (الكبيرة) قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر. وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبها،

(١) أعلام الموقعين: (١/ ٢٣٨).

وهـذا أمر مرجعـه إلى ما يقـوم بالقلب. وهو قـدر زائد على مجرد العقل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره)[1].

* الأمر الثالث:

بالنظر إلى ما يحصـل اليوم من التفرق والخصومات بين النـاس، ولا سـيما في أوسـاط بعـض الدعاة وطـلاب العلم نجـد أنه في كثير من الأحوال إنما يعـود إلى أهواء في القلوب وفسـاد في السرائر، يخفيها أصحابها ولكنها لا تخفى على علام الغيـوب. فكان لزاماً على المؤمن المتعبـد لربه ﷻ بالدعوة إليه والجهاد في سـبيله أن يحذر هذه الدسـائس الخفية، ويسعى إلى تطهـير القلب منهـا، حتى يكتب لدعوته وجهـاده القبول عند الله ﷻ والأثر الطيب في الواقع بين الناس.

* الأمر الرابـع:

ما ظهر في زماننا من فشـو للشـبهات والشهوات تبث عن طريق وسائل الإعلام المتنوعة ضعف بسببها تعظيم النصوص، والتسـليم لخبر الله ﷻ وأمره في كثير من القلوب، ترتب عليها

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٢٨).

آفات قلبية باطنة خطيرة من أخطرها تلك الاعتراضات التي تحيك في الصدور إزاء ما ورد في الكتاب والسنة من أخبار أو أوامر شرعية أو ما يجري في هذا الكون من أقدار الله وأحكامه الكونيـة، فكان لزاماً علينا أن نعتني بسرائرنا وتنقيتها من هذه الاعتراضـات والخواطـر الرديئة التي يعلمهـا علام الغيوب وإن غابـت عـن الناس، وقد تجتـث إيمان العبـد من جذوره والعياذ بالله تعالى.

*** الأمر الخامس:**

وتـأتي أهميـة السرائـر وأعـمال القلـوب أيضاً مـن كونها الأسـاس في الإيمان والكفر والنفاق، وذلك حسـب ما يقوم في القلـب مـن هذه الأوصـاف. وهذا بدوره يؤثر في حسـن الخاتمة وسـوئها، حيث ترتبط الخاتمة حسـناً وسـوءًا بصلاح السريـرة أو فسـادها، وكـم أقـض حسـن الخاتمـة وسـوؤها مضاجع السـلف! وحريٌّ بأمر هذه خطورته وأهميته أن يهتم به ويطرح للمناصحة والتذكير والمحاسبة.

* الأمر السادس:

ومع أهمية هـذا الموضوع في قبول الأعمال أو ردها، وفي حسن الخاتمة وسوئها، وقوة الإيمان من ضعفه، إلا أن الكتابة في هذا الموضوع قليلة ومتناثرة هنا وهناك، كما أن الاهتمام به في حلقات العلـم والدروس والمحاضرات لا يـزال ضعيفاً جـدًّا ولاسيما في أوساط العلوم الأكاديمية والجامعات، حيث ينصـب التركيـز على العلوم المجـردة وملء الأذهـان بها دون العناية بآثارها القلبيـة، وثمارها في صلاح السرائر والظواهر. ولا نبرئ من هذا الإهمال بعض حلق العلم وبرامج التوجيه والتربية المختلفة.

ومـن أجـل هذا ومـا قبله مـن الأمـور التـي ذكرت في أهمية الموضوع تأتي هذه الرسالة من سلسلة الوقفات التربوية في ضـوء القـرآن الكريـم لعلها أن تسـد بعض النقـص في هذا الموضـوع الجلل. نسـأل الله ﷻ أن يصلح ما فسـد مـن قلوبنا وأن يصلح لنا السريرة والعلانية. إنه سميع مجيب

وبعد هذه المقدمة يحسن ذكر أهم فصول الكتاب.

- **الفصل الأول**: المقصود بالسريرة وصلاحها.
- **الفصل الثاني**: الآيات والأحاديث والآثار الواردة في العناية بالسرائر.
- **الفصل الثالث**: من علامات صلاح السريرة وفسادها.
- **الفصل الرابع**: من ثمرات صلاح السريرة.
- **الفصل الخامس**: الأسباب المؤدية إلى صلاح السريرة.
- **الخاتمة**.